

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس : تفسير الآيات ١ - ٤ الشر والسحر والحسد .

٢٣-٠٨-١٩٨٥

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أحاديث شريفة وردت عن فضل هذه السورة والسورة التي تليها :

أيها الأخوة الأكارم، سورة اليوم هي سورة الفلق، قال تعالى:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ

حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْزَلَ أَوْ أَنْزَلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يَرِ

مِثْلَهُنَّ قَطُّ الْمَعْوَدَتَيْنِ))

[البخاري عن عقبة بن عامر]

((أَلَمْ تَرَ آيَاتِ اللَّيْلِ لَمْ يَرِ مِثْلَهُنَّ قَطُّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ))

[مسلم عن عقبة بن عامر]

((اِقْرَأْ يَا جَابِرُ، قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ اِقْرَأْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَ قُلْ

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فَقَرَأْتُهُمَا فَقَالَ اِقْرَأْ بِهِمَا وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا))

[النسائي عن جابر بن عبد الله]

أحاديث كثيرة وردت عن النبي عليه الصلاة والسلام تتحدث عن فضل هذه السورة والسورة التي تليها،
أمّا كلمة:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾

فالفعل (قُلْ) تَحَدَّثْنَا عَمَّا فِي الدَّرْسِ الْمَاضِي عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَأْمُورٌ أَنْ يَقُولَ نَصًّا هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَرْفًا بِحَرْفٍ، وَحَرَكَةً بِحَرَكَةٍ، وَنَصًّا بِنَصِّ، وَتَرْتِيبًا بِتَرْتِيبٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِنَّمَا هُوَ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِنَصِّهِ.

قال تعالى:

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ }

في هذه الآية مركز ثقل، وهي كلمة (الْفَلَق)، فقد ذهب العلماء في تفسيرها مذاهب شتى، ولكن أرجح هذه التأويلات والتفسيرات أن (الْفَلَق) هو الكون كُله، كان الله ولم يكن معه شيء فخلق الكون، أي ظهر الكون، فالكون هو الفلق، والسماء تنشق عن المطر، والمطر هو الفلق، والأرض تنشق عن النبات، والنبات هو الفلق، والمرأة تلد طفلاً، والطفل هو الفلق، والشجرة تثبت بُرْعماً، والبُرْعَم هو الفلق، والبُرْعَم يُنبِت زَهْرَةً، والزهرة هي الفلق، والزهرة تنعقد ثَمْرَةً والثمرة هي الفلق، وأنثى الحيوان تلد ومولودها فلق، كُلُّ شيء خرج إلى حَيَزِ الوجود، كان غائباً عنا فَظَهَرَ، انشق فَظَهَرَ هو الفلق، لكن بعض المُفسِّرين قالوا: سورة الفلق استعادة بالله سبحانه وتعالى من شرِّ ما خلق، وسورة الناس استعادة بالله سبحانه وتعالى من شرِّ الوسواس الخناس، والشيء الذي تُحْطِي فيه فيصيبك، فمن خطبك أن تستعيد منه بسورة الناس، فالأشياء التي تُصيب الإنسان، والتي لا يستطيع الإنسان دفعها كالتي تُسمى قضاءً وَقَدْرًا استعد منها بسورة الفلق، والأشياء التي هي من أعمال الإنسان، ومن أخطاء الإنسان، والتي تُسبب متاعب للإنسان فليستعد منها بسورة الناس، على كُلِّ معنى (أعوذ) أَلْتَجِي وَأَحْتَمِي وَأَسْتَعِيثُ وَأَسْتُنْجِدُ وَأَسْتَجِيرُ، كُلُّ هذه المعاني مُستفادة من كلمة (أعوذ)، نقول: عادَ الطِّفْلُ بِأُمِّهِ، أي أَلْتَجَا إليها، وأَحْتَمَى بها، وأوى إليها، ورجا عندها الأمل، إحتمى بها من أعدائه ومن وَحْشٍ مُخِيفٍ، فَسُبْحَانَهُ وتعالى له مخلوقاتٌ شَرِيْرَةٌ ومخلوقات من نوع الجَمَادِ، الصواعق والبراكين والزلازل والأمراض، ومخاطر من نوع الإنسان، إنسانٌ شَرِيْرٌ يُحِبُّ لك الأذى ويحبُّ أن يوقع بك.

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ }

أَطْعُ أَمْرًا نَزَفَ لِأَجْلِكَ حُجْبٌ نَا فَاِنَا مَنَحْنَا بِالرِّضَى مِنْ أَحَبَّنَا

وَأَذْ بِحِمَانَا وَاحْتَمِ بِجَنَابِنَا لِنَحْمِيكَ مِمَّا فِيهِ أَشْرَارُ خَلْقِنَا

الله سبحانه وتعالى أراد بكلمة الفلق الكون كُله :

أكرّر معنى أعوذ أي أحتمي، وألتجى، وأطلب الأمن والسلام، أحتمي وأستعيت وأستنجد، والفلق كما قلت قبل قليل الكون كُله، وكُلُّ شيء تنطوي عليه عينك وإنما هو الفلق.

قال بعضهم: الفلق هو الصبح، لكن الفلق أعم من الصبح، في الاستعادة هناك المُستعيد، والمُستعاذ به، والمُستعاذ منه، فالمؤمن مأمور أن يستعيز والمؤمن مُتواضع لله عز وجل وليس في قلبه كبر، يخاف

عذاب الله وبطشه، يستعيز بالله فهو مُستعيز، وأخطار الحياة من شرِّ ما خلق يُستعاذ منها، والله سبحانه وتعالى يُستعاذ به، فلما يستعيز الإنسان بغير الله فقد أشرك، إن استعاذ بقوته، أو استعاذ بقرابته فقد أشرك، إن احتنى بماله، وقال: المال هو كُلُّ شيء فقد أشرك:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾

طبعاً الفلق على وَزْنِ فَعْلٍ، كَقَوْلِكَ قَصَصَ، بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أي مَقْصُوصٍ، فَكُلُّ شَيْءٍ أَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى حَيْزِ الْوُجُودِ هُوَ الْفَلَقُ، فَكأنَّ سُبْحَانَهِ وَتَعَالَى أَرَادَ بِكَلِمَةِ الْفَلَقِ الْكُونَ كُلَّهُ، كُلُّ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنُكَ وَمَا لَمْ تَقَعْ، وَكُلُّ مَا رَأَيْتَهُ وَمَا لَمْ تَرَهُ، وَكُلُّ مَا أَحْسَسْتَهُ بِهِ وَمَا لَمْ تُحَسَّ بِهِ إِنَّمَا يَنْطَوِي تَحْتَ كَلِمَةِ الْفَلَقِ، فَخَالِقُ الْفَلَقِ رَبُّ الْفَلَقِ، وَهُوَ وَحْدَهُ أَهْلٌ أَنْ تَسْتَعِيزَ بِهِ لِأَنَّهُ الْقَوِيُّ الْمُبْدِعُ الْخَالِقُ، وَهَذَا الَّذِي تَخَافُ مِنْهُ هُوَ بِيَدِ اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

[سورة الزمر: ٦٢]

الله سبحانه وتعالى ربُّ الفلق وهو وحده أهل أن تستعيز به :

قال تعالى:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[سورة هود: ٥٦]

فالله سبحانه وتعالى ربُّ الفلق وهو وحده أهل أن تستعيز به، وإذا استعذت بمخلوقٍ دونه فقد وقعت في الشرك، وما من مخلوقٍ يعتصمُ بي من دون خلقي أعرف ذلك من نبيته فتكيد له أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصمُ بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نبيته إلا جعلت الأرض هويماً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، فاسأل نفسك هذا السؤال: إذا ألمت بك مصيبة فأنت تستعيز بمن؟ أتفرغ إلى قريبٍ لك من ذوي الحول والطول! أتفرغ إلى واسطةٍ تُرجح الموقف! أتفرغ إلى مالك تدفعه للناس؟! أم تفرغ إلى الله عز وجل؟ كان عليه الصلاة والسلام إذا حربه أمرٌ بادر إلى الصلاة، ومن علامة الإيمان أن تستعيز بالله عز وجل، وتلجأ إليه، وأن تكون في حماه وظله، فقل أعوذ بربِّ الفلق، هذا أمرٌ موجَّهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فمن أنت؟! وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. مما يؤكد هذا التفسير ويدعمه قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَا تُؤَفِّكُونَ ﴾

[سورة الأنعام: ٩٥]

آية أخرى، وهي قوله تعالى:

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

[سورة الأنعام: ٩٦]

مُجَرَّدٌ أَنْ تَسْتَعِيزَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكْتَ :

الله سبحانه وتعالى وَحْدَهُ أَهْلٌ لِلِاسْتِعَاذَةِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا بِهِ، وَإِذَا اسْتَعَدَّتْ بِسِوَاهِ فَإِنَّ فِي إِيمَانِكَ خَلَلًا، وَفِي إِيمَانِكَ شِرْكَاءَ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة يوسف: ١٠٣]

وقال تعالى:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

[سورة يوسف: ١٠٦]

بِمُجَرَّدٍ أَنْ تَسْتَعِيزَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكْتَ، لِذَلِكَ فَالِدَعَاءِ النَّبِيِّ الشَّهِيرِ إِذَا أُقْدِمَ الْمَرْءُ عَلَى عَمَلٍ قَالَ: " اللَّهُمَّ إِنِّي تَبَرَّأْتُ مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي وَالتَّجَاؤُ إِلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ يَا ذَا الْقُوَّةِ الْمَتِينِ "، وَكَلِمَا لِاحَ لَكَ شَبْحُ مَصِيبَةٍ وَتَوَهُّمَتْ مِنْ إِنْسَانٍ قُوَّةً وَأَنَّهُ يُرِيدُكَ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ فَقُلْ:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾

أليس النبي عليه الصلاة والسلام قُدْوَةٌ لَكَ فِي هَذَا؟ مِنْ عِلْمَةِ الْمُؤْمِنِ الْاسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهَنَّاكَ مِنْ يَرَى لِنَفْسِهِ شَأْنًا كَبِيرًا، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، هَذَا هُوَ الْكِبَرُ، وَالْمُتَكَبِّرُ دَوَاؤُهُ الْقَصْمُ، وَمَا مِنْ مُتَكَبِّرٍ إِلَّا قَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تُؤْبَهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

الشَّرُّ طَارِيٌّ وَالْأَصْلُ هُوَ الْخَيْرُ :

قال تعالى:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

هنا نقطة دقيقة جداً أتمنى أن تكون واضحة لديكم، الله سبحانه وتعالى لا يخلق شرًّا، وإذا سأل سائلٌ من الذي خلق الشرَّ – طبعاً في العقيدة السليمة: أمنتُ بالقدَّرِ خيره وشرِّه – ولكنَّ الشرَّ كَثُرَ ما مَبْعَثُهُ؟ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَيْرٌ لَنَا، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي الشَّرُّ؟ حِينَمَا يَغْفَلُ الْإِنْسَانُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى،

وتتحرّك شهواته كي تُروى، ويتحرّك لِشَهَوَاتِهِ من دون بصيرة من الله عز وجل ومن دون هُدى يقع له الشرّ، إذا متى يصنّد الشرّ من الإنسان؟ إذا غفل عن الله عز وجل، فهو تعالى أمره ألا يغفل عنه، سيارة مُنْذِفَةٌ ما دام فيها سائق ماهر وحكيم، والأدوات كلها بيده، وتحت سيطرته، ومعه ضَوْءٌ كاشف يكون الخير، وتنقله إلى مُبتغاه، أما إذا كان سائقُ السيارة مُدْمِنَ خَمْرٍ، قد يقع الحادث المُفْجِع، وإذا انطفاً مصباحه يقع الحادث كذلك، فالشرُّ طارئٌ والأصل هو الخير، فالإنسان إذا أقبل على الله عز وجل كان خَيْراً، فإذا حُجِبَ عن الله عز وجل، وانقطع عنه وأعرض، وكانت في نفسه شهوات من دون هُدى من الله عز وجل هنا يقع الشرّ، فلا يصنّد الشرّ من الإنسان إلا إذا تحرّك وهو في عمى، أما إذا تحرّك لِقضاء حاجاته وشهواته وفق ما أمر الله عز وجل، ووفق الهدى الإلهي فلا يقع الشرّ، يتزوَّج فيقع الخير، يسكن إلى رَوْجَتِهِ وتسكن إليه، ويُنجب أولاداً أبراراً، يُرَبِّبهم على حبِّ الله ورسوله، وله عملٌ ينفع به المسلمين، فأى حرّكة تتحرّكها وفق المنهج الإلهي فأنت في خير، لأنّ هناك نقطة دقيقة وهي مع أنّه شرير بحكم بُعده عن الله عز وجل، وانقطاعه عنه، وبحكم العمل الذي وقع فيه، فهذا الإنسان الشرير ليس طليقاً، بل هو بيد الله عز وجل، يسوقه لمن يستحق أن يوقع الأذى به، الظالم سوط الله ينتقم به ثمّ ينتقم منه، إذا قال بعض علماء التوحيد: إنّ الشرّ ليس له وجودٌ إلا في النفوس، أما في العالم المادي فإنّ شرّ الإنسان يُوظفه الله تعالى في مصلحة الإنسان، فهذا السارق يُحب أن يسرق، والسرقَةُ شرٌّ ورغبةٌ في الحصول على المال من دون هُدى من الله عز وجل، هذه السرقَةُ شرٌّ، لكنّ الله سبحانه وتعالى أخذ بيد السارق، يسوقه إلى مالٍ حرام فيؤدّب به المسروق؛ هذا هو الشرّ الذي يصدر عن الإنسان.

أنواع الشرور :

أما الشرّ الذي يصدر عن الحيوان فحينما يتجاوز حُدوده يقع، فالأفعى حيوانٌ نافعٌ إذا بقيت في باطن الأرض، فإذا حرّجت تُصبحُ شريرة، وأمرنا بقتلها، وكذا العقرب، وعلى مُستوى الإنسان إذا غفل عن الله عز وجل، وانقطع، يُصبحُ شريراً، وشرُّه مُقيّد لا يستطيع أن يوقع أذاه إلا بمن يشاؤه الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الشرّ الصادر عن الإنسان، وقد أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بقتل الفؤيسقات؛ الفأرة والعقرب والحية، لأنّها تجاوزت حُدودها، أما إذا تتبّعنا إلى وكرها فقتلها حرام، لأنها تُقدّم خدمةً ثابتة، فقد اكتشف العلماء أنّ هذه الحيوانات التي تعيش في باطن الأرض لها دورٌ خطير في تهوية التربة، وفي إنبات المزروعات، أما الشرّ الصادر عن الجمادات ففي سوء استعمالها، فالله سبحانه وتعالى خلق المواد كلّها، فإذا استعملتها في غير مَوْضعها كمن يضع السكر في الطبخ! والملح في الشاي! والمنظف في الطبخ! والوقود في الحليب! فسوء استعمال المواد يُسبّب ضرراً، فكما تلاحظون أنّ الشرّ طارئ، وهو سلبي، وليس إيجابياً، قال تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ نُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ وَنَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ وَنُعْزِزُ مَنْ نَشَاءُ وَنُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ
بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾

[سورة آل عمران: ٢٦]

الخنزير مُحَرَّمٌ أكله، لكنَّ الله سبحانه وتعالى خلقه لِوِظِيفَةٍ، والضبيغ كذلك، لِتَنْظِيفِ الْبَرِيَّةِ مِنَ الْجِيفِ، لأنَّ هذه الجيفة إذا ماتت تملأُ الفضاءَ بِرِيحِهَا الكريهة، فتأتي مثل هذه الحيوانات فَتُريحُنَا منها، أما أن تاكلها فهي شرٌّ، فَكُلُّ أنواع الشرور إما أن تنتج عن غفلة من الإنسان، وقد أمر أن يكون مع الله سبحانه وتعالى، وإما أن تنتج عن تجاوز الحيوان حَدَّهُ، أو استِعماله في وَظِيفَةٍ لم يُخلَقْ لها، كأن تاكله وقد حرَّم الله تعالى أكله، أو أن تستخدم المواد التي خلقها الله عز وجل كلها لِمَصْلَحة الإنسان، أن تستخدمها في غير مَوْضِعِهَا، فهذا هو الشرُّ.

التملك لا يكون إلا بعد التذليل :

رَبُّنَا عز وجل قال:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

طبعاً من شرِّ ما خلق على معنى أن هذه المواد إذا أسِء استِخدامها، وهذه الحيوانات إذا تجاوزت حَدَّهَا، وهذا الإنسان إذا غفل عن الله يُصِبحُ مُؤْذِيّاً، وقد تأتي النكبات والزلازل والبراكين والفيضانات والأوبئة والأمراض، كل هذا من شرِّ ما خلق:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

هناك نقطة صغيرة تتعلق بالحيوانات، فمثلاً الجمل مُذَلَّلٌ، والغنم مُذَلَّلٌ، والبقرة مُذَلَّلٌ، والدجاج مُذَلَّلٌ، والإنسان يأنسُ بها، ويزتأخُّ لها، ويفتنِّيها، ويَتَمَلَّكُهَا، قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾

[سورة يس: ٧١]

من معاني هذه الآية: متى تَمَلَّكُوها، وتنافسوا على تَمَلَّكِهَا؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ذَلَّلَهَا لهم، أما الضبيغ والذئب والحية والعقرب، هذه لم تُذَلَّلْ، فهل تُمَلَّك؟

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾

[سورة يس: ٤٢]

فكأن الله سبحانه وتعالى بتذليل بعض الحيوانات، وعدم تذليل البعض الآخر أراد أن يُعرِّفنا نعمة التذليل، لولا أنه ذَلَّلَ هذا الحيوان، ولولا أنه ترك هذا الحيوان مُخِيفاً لما عرفت نعمة التذليل، نعمة التذليل ندرَكها من وجود حيوانٍ غير مُذَلَّلٍ، ولذلك التملك لا يكون إلا بعد التذليل:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

آيَةٌ سَيِّئَةٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ مَهْمَا كَانَتْ صَغِيرَةً فَمِنْ نَفْسِكَ :

هناك حيوانات غير مذللة، فلدغة عقرب وأفعى قد تُمِثُّ الإنسان، هناك حيوانات مُفْتَرَسَةٌ الماء قد يُعْرِفُها، وبعض الأدوية قد تُفْقِدُها الحياة، وبعض الأعشاب قد تُفَوِّدُها الحركة:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

شيءٌ آخر أُجِبُ أَنْ تَقْفُوا عنده وَفَقَّةٌ مُتَأَنِّيَةٌ، سأقرأ على مسامِعكم طائفة من الآيات الكريمة، القرآن كما يقول علماءه قَطْعِي الثبوت، قَطْعِي الدلالة، قَطْعِي الثبوت أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلًا وَاحِدًا، وَقَطْعِي الدلالة أَنَّ الْمَعْنَى الْمُسْتَفَادَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ يَقِينِيَّةٌ لَا مَجَالَ لِرَدِّهَا، اسْتَمِعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴾

[سورة النساء: ٧٩]

سَيِّئَةٌ نَكْرَةٌ وَهُوَ تَنْكِيْرٌ شُمُولٌ، فَأَيُّهُ سَيِّئَةٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ مَهْمَا كَانَتْ صَغِيرَةً وَمَهْمَا كَانَتْ كَبِيرَةً، وَمَهْمَا كَانَتْ مُبَاشِرَةً أَوْ غَيْرَ مُبَاشِرَةً، مُؤَلِّمَةً أَوْ طَفِيفَةً الْأَلْمِ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَهَلْ تَسْتَطِيعُ إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنْ تَقُولَ: إِذَا أَصَابَتْكَ مُصِيبَةٌ، وَأَنَا مَاذَا فَعَلْتُ؟!

آيَاتُ قُرْآنِيَّةٌ تُوَكِّدُ أَنَّ الشَّرَّ مِنَ الْعِنْدِ الْإِنْسَانِ :

اسْمَعِ الْآيَةَ:

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴾

[سورة النساء: ٧٩]

قَوْلًا وَاحِدًا، آيَةٌ ثَانِيَّةٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾

[سورة الشورى: ٣٠]

آيَةٌ ثَالِثَةٌ، قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[سورة آل عمران: ١٦٥]

ما من عثرةٍ أو اختلاجٍ عرقٍ ولا خدشٍ عودٍ إلا بما قدّمت أيديكم، وما يغفو الله أكثر:

((قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَرِنِي بِشَيْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ قَالَ قُلْ اللَّهُمَّ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَه قَالَ قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ))

[الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

هناك دقّةٌ بالغة في أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، لم يقل عليه الصلاة والسلام: اللهم إني أعوذ من شرّ الشيطان ومن شرّ نفسي، فلما قدّم شرّ النفس على شرّ الشيطان أكّد أنّ كل شيء بيده، وأنّ الدواب كلّها بيد الله عز وجل، وأنّ كل دابةٍ أخذٌ بناصيتها، وأنّه إذا أطلق دابةً من هذه الدواب ليصيب إنساناً ما بأذى فيسبب شرّاً في نفسه، وهذا الدعاء تعليمي لنا، اللهم إني أعوذ بك من شرّ نفسي ومن شرّ كلّ دابةٍ أنت أخذٌ بناصيتها، لذلك ورد: لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربّه.

إذا استحقّ العبدُ مُعَالَجَةً سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَرْحَمُهُ :

إذا رجوت الله سبحانه وتعالى، وإذا خفت الله تعالى خافك كلّ شيء، وإذا لم تخف الله تعالى أخافك من كلّ شيء، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة المائدة: ١١]

فحينما يكون الإنسان مع الله عز وجل يكفّ عنه أيدي الأشرار، وهناك شيء في التوحيد يُسمونه التسليط، وهو من الله عز وجل، فإذا استحقّ العبدُ مُعَالَجَةً سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَرْحَمُهُ، وإذا استحقّ إجراماً كفّ الله عنه يد الأشرار، لذلك قال بعض العارفين:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإننا منحنا بالرّضى من أحبنا
ولذبحمانا واحتّم بجانبا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

تَدَكَّرْ أَنَّكَ إِذَا لَمْ تَسْتَقِمَّ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَلَمْ تَلْتَجِئْ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَسْتَعِذْ بِهِ، فَالْأَشْرَارُ كَثِيرُونَ، وَالْجِهَاتُ الَّتِي تُخِيفُ الْإِنْسَانَ عَدِيدَةٌ، فَمَصَادِرُ الْقَلْقِ وَالْخَوْفِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا تَعُدُّ وَلَا تُحْصَى، وَإِذَا عَرَفْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاسْتَقَمْتَ عَلَى أَمْرِهِ، وَالتَّجَأْتَ إِلَيْهِ، وَاسْتَعَدْتَ بِهِ دَخَلْتَ فِي أَمْنٍ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الأنعام: ٨١]

الأصل هو الخير أما الشرّ فهو طارئ، الخير إيجابي يختلج إلى خالق، والشرّ سلبي ناتج عن غفلة الإنسان، أو عن تجاوز الحيوان، أو عن سوء استخدام الجمادات، والشرّ علاجي، وهو بيد الله عز وجل، أمنت بالفقر خيرته وشره من الله عز وجل.

الحكمة من خلق الشر والخوف في الأرض :

شيء آخر:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

لماذا خلق الله سبحانه وتعالى أشياء تخيفنا؟ سؤال، لماذا خلق الأفعى والعقرب، وأشخاصاً مخيفين شريرين؟ قال علماء التوحيد: لو لم يجعل الله سبحانه وتعالى في الأرض مصادر للخوف لاستغثيت عنه، وبهذه الأشياء المخيفة تبقى ملتجئاً إليه، وإذا التجأت إليه سعدت بفقره، من أجل أن يسعدك، فالطفل إن ترك أمه شقي، فإذا كان هناك حيوان مخيف للطفل في الطرف الآخر، فهذا الطفل يبقى مع أمه، فهذه الأشياء المخيفة التي بثها الله في الأرض من حيوانات، وجمادات، وأشخاص شريرين، وأشياء مزعجة، تصنع الوجهة إلى الله، والالتجاء إليه، وتحملك على أن تلود به، وتحتمي بحماه، وتقبل عليه، وتستعيد به:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

حكمة بالغة، فلولا وجود مخلوقات شرييرة في الأرض لاستغنى الإنسان عن الله سبحانه وتعالى، ولو نام أحدكم بخيمة فإنه يحظر بباله عقرب، أو حية، فيقرأ آية الكرسي كي يحفظه الله تعالى، فلو لم يكن هناك خطر لنام مثل الحيوان، أما هذه الأشياء المخيفة تدعوه للالتجاء إلى الله - طبعاً بصورة عامة لا يوجد عند الإنسان حيات بالبيت، لكن هناك أشياء مخيفة تشابهها - لو جاءتك ورقة صغيرة: تعال إلى عندنا بعد أسبوع، لن تنام ذلك الأسبوع خوفاً من هذا الاستدعاء، فالأشياء المخيفة هي في خدمة الإنسان، صار الشر إذاً نسبياً، يا ترى لو أصيب الإنسان بالزائدة والنهبت أليس شق البطن، ونزول الدم منظراً يدعو للخوف، ومع ذلك هذه العملية من أجل راحتِهِ، أليس حفر السن مؤلماً، من أجل راحة أكبر منه فصار الشر نسبياً.

إيتاء الملك ونزع الملك والإعزاز والإذلال كلها خير عند الخبير والعليم والحكيم والمعالج:

الآية الكريمة:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾

[سورة آل عمران: ٢٦]

قوله تعالى: تؤتي الملك من تشاء، وقوله: وتنزع الملك ممن تشاء، ينظر الناس شرّاً، وتُعزُّ من تشاء خير، وتُذِلُّ من تشاء شرّاً، لكن إيتاء الملك ونزع الملك، والإعزاز والإذلال كلها خير عند الخبير والعليم والحكيم والمعالج، وعند الذي خلقك للأخرة، وعند الذي أعدّ لك ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وعند الذي خلقك من أجله، فأترت أن تكون من أجل عباده، فأذاقك الله بأسهم، فإما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لبشرٍ لنيم، فاحتر! ولا بد من العبودية، إما أن تكون عبداً لله، فعبداً لله حُرّاً وعزيراً وكريم، وإما أن تكون عبداً لِعَبْدٍ لنيم، والله والله مرتين لِحَفَرٍ بِنْرَيْنِ بِإِيرْتَيْنِ وَكُنْسُ أَرْضِ الْجِازِ فِي يَوْمِ عَاصِفٍ بِرِيشَتَيْنِ، ونقل بحرين زخرين إلى أرض الصعيد بمخَلَيْنِ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيراً أبيضين أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين، إما أن تكون عبداً لله، أو عبداً لبشرٍ لنيم؛ إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يقبل، إن رأى خيراً دَفَنَهُ، وإن رأى شراً أذاعه:

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

من هؤلاء، ولعلي أتيت على بعض النواحي الدقيقة في هذا الموضوع، الشرّ نسبي، هو عندك شرّ، أما عند الله فهو خير، كما أن الطفل يبكي ويضطرب إذا علم أن الطبيب سيُعطيه إبرة، مع أن هذه الإبرة لصالحه ولتسكين ألمه، وإزالة الألتهاب، فعند الطفل هذه الإبرة شرّ، أما عند الأب فهي خير.

المصائب نعم باطنة :

اليسر إيجابي، وأما الشرّ فهو طارئ، والشرّ ناتج عن غفلة، وتجاوز حدود، وعن سوء استعمال، لذلك قال بعضهم في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾

[سورة لقمان: ٢٠]

المصائب نعم باطنة، رجلٌ أصيبت ابنته بمرضٍ عُضال، بذل من أجل علاجها المُستحيل، فباع بيته، وبعد سنواتٍ طويلة فكر ساعة، وقال: لو أنني تبتُّ إلى الله لعلَّ الله يشفيها، فبدأ يُصلي هو وزوجته، حَبَّ زَوْجَتَهُ، وابتعدا عن المنكر، فشفاه الله عز وجل، فَبِيعَ بَيْتَهُ، وهذه السنوات الست التي أمضاها

في ألمٍ لا يُحتمل من جراء مرضٍ عضالٍ أصاب ابنته، ثم انتهى هذا كُلهُ بهُداه، واصطلاحه مع الله سبحانه وتعالى، أَيْعُدُّ هذا المرضُ شراً؟ أَيْعُدُّ بَيْعُ بَيْتِهِ شراً؟ لا والله، ولو أن تاجرًا اخْتَرَقَ مَتَجَرَّهُ، ثم تاب عن التعامل بالربا، كما قال أحدهم: والله اخْتَرَقَ لي مليونين من البضاعة، وكان اخْتِرَاقُ هذه البضاعة سبباً لِتَوْبَتِهِ، وتزكّيه الربا، أَيْعُدُّ هذا شراً؟ لا والله، لكن الله سماه شراً بِحَسَبِ مَفْهُومِنَا نحن، وبِحَسَبِ مصطلحنا بيننا:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

الإعراضُ ظُلمةٌ وأكبرُ هَوْلَاءِ الْمُعْرِضِينَ هو الشيطان :

ثم قال تعالى:

﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

قال بعضهم: الغاسق هو الليل، وقال بعضهم: الشيطان، لماذا هو غاسق؟ لأنه مُظلم، ولأنه بعيدٌ عن الله تعالى، فبُعْدُهُ عن الله تعالى أَوْقَعَهُ في ظُلمة، وإذا أَقْبَلَتْ على الله عز وجل صِرَتْ في نورٍ، قال عليه الصلاة والسلام:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعِ نَفْسَهُ فَمُعْتَفٍهَا أَوْ مُؤَبِّفُهَا))

[مسلم عن أبي مالك الأشعري]

الإعراضُ ظُلمةٌ، وأكبرُ هَوْلَاءِ الْمُعْرِضِينَ هو الشيطان، في ظلامٍ دامسٍ، وفي غَسَقٍ:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

ثمَّ يعنى الشيطان إذا وَقَبَ، ومعنى وَقَبَ أي دخل في الوَقْبِ، والوَقْبُ الكُوَّةُ، وهي كِنَايَةٌ عن صَدْرِ الإنسان، فإذا دخل الشيطان في الإنسان فالعِيَاذُ بالله! قبل أيامٍ عديدةٍ اثنان في حالة سُكْرِ شديدٍ أرادا أن يَفْعَلَا الفاحِشَةَ بِغِلَامٍ، فاختلفا، فأطلق أحدهما النار على الآخر بالمُسَدَّسِ، فأزداه قتيلاً، وأخذ الثاني إلى السِّجْنِ، أنا قلتُ: هذا من عَمَلِ الشيطان، وهذا هو "من شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ"، هؤلاء الذين يُعْدِمونهم في الساحة العامة كُلَّ يَوْمٍ أو يَوْمَيْنِ، من هم؟ هؤلاء دخل فيهم الشيطان فَسَوَّلَ لهم ارتكابَ جَرِيْمَةٍ، أو سَرَقَةٍ حانوتٍ، أو قَتْلِ إنسانٍ، أو سَرَقَةٍ مُرَكَّبَةٍ، أو اغْتِصَابِ فتاةٍ، فكان مصيرُهم ما كان:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

إِذَا قُلْتَ (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) نَجوت منه :

في مُقَدِّمَة هذه الشرور الشيطان الغاسق إذا وَقَب، إذا دخل في نفس الإنسان جَعَلَهُ شَرِيْرًا، يُحِبُّ شَهْوَتَهُ ولو كانت على حساب الآخرين، يُحِبُّ قضاء لَذَّتِهِ ولو أدَّتْ إلى تحطيم امرأة وجعلها مومساً، يُحِبُّ اكتناز المال ولو كان سلباً أو سرقَةً، يُحِبُّ أن يخيا ويموت الناس، ويأكل ويجوع الناس، يُحِبُّ أن يبني مَجْدَهُ وحياته على موتهم، أن يبني أَمْنَهُ على قَلْقِهِمْ، أن يبني مَجْدَهُ على ذُلِّهِمْ:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

لكن معك سلاح ضدَّ الشيطان، وهو فعالٌ جداً، إذا قُلْتَ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كان السلاح الخطير تُصَوِّبُهُ عليه فَتَجْعَلُهُ يَهْمَد، إذا قُلْتَ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نجوت منه، وربُّنا قال:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

[سورة الأعراف: ٢٠٠]

وقال تعالى:

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾

[سورة المؤمنون: ٩٧]

إنَّ أَلَمَ بكَ خَاطِرٌ خَطِيرٌ، ولا يُرْضِي اللهُ، كأن تأخذ شيئاً ليس لك، أو أن تختال، أو أن تُدَّيْسَ، أو أن تَخْدَع، أو تُخْفِي عَيْبَ الْبِضَاعَةِ، أو تكذب في رأسمالك، أو تُزَوِّرَ، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، لأنَّ هذه وساوس الشيطان الذي دخل إلى صدرك، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا دَخَلَتْ إلى بيتي، وَسَوَّلَتْ لك نَفْسُكَ أن تُلقِي نظرةً على من فيه من دون أن يكون مُباحاً لك هذا، لا يَخْلُونَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ تَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، يَسْوِرُ له فِعْلَ الْمُنْكَرِ.

على الإنسان أن يُعِينَ أَخَاهُ على الشيطان وليس أن يُعِينِ الشيطان على أخيه :

قال تعالى:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

وفي رؤوس الأشرار شرُّ غاسقٍ إذا وَقَب، الآن هناك مَعْنِيَان: المعنى الأول: الشيطان إذا دخل إلى نفس الإنسان. والمعنى الثاني: إذا دخل الشيطان إلى نفس شخص آخر يُصْبِحُ وخشياً يكاد ينقض عليك، وبطاشاً ومُؤْذِيّاً ومُجْرَماً، فاستعذ بالله أن يدخل الشيطان إلى صدرك فَيُوسِسُ إليك، واستعذ بالله أن يدخل الشيطان إلى صدر إنسان آخر تتعامل معه فينقلب أمامك شَرِيْرًا، قال تعالى:

﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾

[سورة القصص: ١٥]

هذه مُشاحنة بين القِنْطِي والإِسْرَائِيلِي، هذا من عمل الشيطان، الشيطان دخل بينهما، فلذلك الإنسان عليه أن يُعِينَ أخاهُ على الشيطان، وليس أن يُعِينَ الشيطانَ على أخيه، فإذا غضِبَ أخوك فاسْكُتْ، فإذا رَدَدْتَ عليه بِكَلِمَةٍ قَاسِيَةٍ أَعْنَتَ الشيطانَ عليه، فإذا سَكَتَ أَعْنَتَهُ على الشيطان، رَجُلٌ تَلَفَّظَ بِكَلِمَاتٍ قَاسِيَةٍ بِحَقِّ صَاحِبِي جَلِيلٍ، ما فعل هذا الصَّاحِبِي شَيْئاً إلا أن قال: غفر الله لك إن كُنْتَ مُخْطِئاً، وغفر الله لي إن كُنْتُ مُخْطِئاً، علاقتك مع زَوْجَتِكَ، ومع أَوْلَادِكَ، وجيرانك، وأصحابك، وزُملائك، أَعْنَهُم على الشيطان، ولا تُعِنَ الشيطانَ عليهم، إذا اسْتَفْزَرْتَهُمْ، وَقَسَوْتَ معهم، وأخذتَ حَقَّهُمْ فقد أَعْنَتَ الشيطانَ عليهم، أما إذا تسامحتَ معهم وأحسنتَ إليهم فقد أَعْنَتَهُم على الشيطان:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

السحر والتخاطر النفسي :

ثم قال تعالى:

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾

النفثات هي النفوس الساحرة، والسِّحْرُ أصلُهُ التَّمْوِيهِ بِالْحَيْلِ وَالتَّخَايُلِ، كالسراب تراه ماءً، وهو انعكاسُ شُعَاعِي على الأرض، سَحَرْتُ الصَّبِيَّ أَي حَدَعْتُهُ، وَأصلُهُ الخفاءُ والصَّرْفُ، فإذا صرَفْتَ إنساناً عن شيءٍ فقد سَحَرْتَهُ، وَأصلُهُ الاستِمالةُ، قالوا: محمدٌ صلى الله عليه وسلم سحر أصحابه، أي مالوا إليه، والسِّحْرُ أن تُؤَخِّدَ بِلُطْفٍ، والسِّحْرُ عند بعض المذاهب الإسلامية خِدَاعٌ لا أصل له، وعند الشافعي رضي الله عنه وَسُوسَةٌ وأمراض، وعند الأحناف حقٌّ، وله حقيقة، ولكن هناك أشياء حتى الآن طبيعتها بَقِيَتْ مَجْهُولَةً، دَرَسْنَا شَيْئاً في عِلْمِ النَّفْسِ اسمه التخاطر، امرأةٌ في إيطاليا وهي في مطبخها رأت ابنها وهو في باريس، قد دهستهُ سيارة فصرخت، رآتهُ بِأَمِّ عَيْنَيْهَا، بعد أيامٍ ثلاثة جاء جُثْمَانُ ابنها إلى البيت، مع تَفْرِيرٍ يُوَكِّدُ الدَّقِيقَةَ التي رآتهُ فيها يُدْهَسُ، سماها علماء النفس التخاطر النفسي، وهذا قائدٌ جيشٍ في العراق قال: أَسْمَعُ صوتَ أمير المؤمنين يُحَدِّرُنِي، الجبلَ الجبلَ، هذه وَقَعَتْ كيف؟ لا نعرف، العِلْمُ عاجزٌ عن تَفْسِيرِ هذه الخاطرة التي سماها العلماء التخاطر النفسي، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾

[سورة الإسراء: ٨٥]

وقال تعالى:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾

[سورة البقرة: ٢٥٥]

فالتخاطر معلومٌ ومجهولٌ، هو حدثٌ وَقَعَ، ولكنَّ تفسيرهٌ مجهولٌ، كذلك السِّحْرُ، فالأخفاف قالوا: هو شيءٌ حقيقيٌّ، ولكنَّ طبيعته مجهولةٌ، والإمام الشافعي قال: هذه وساوسٌ وأمراضٌ، وبعض الفرق الإسلامية قالوا: وهمٌ لا أصلٌ له، لكنَّ النبي الكريم استعاذ بالله من هؤلاء الذين يسحرون، هناك أشياءٌ دقيقةٌ سأوردُها لكم في هذا الموضوع.

لا يَسْتَطِيعُ السَّاحِرُ أَنْ يَضُرَّ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ :

هناك من السِّحْرِ ما يُكَوِّرُ صاحِبَه، ومن فعل السِّحْرِ لِيَصْرِفَ الناسَ إليه فهذا كُفْرٌ، وبعض المذاهب الإسلامية أباحت دمَ هذا السَّاحِرِ لأنَّهُ يُضِلُّ الناسَ، ويصِرُّفهم عن الحقيقة الكبرى إلى نفسه، وربنا عز وجل قال:

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: ١٠٢]

لماذا كفروا؟ يُعَلِّمُونَ الناسَ السِّحْرَ، قصَّةٌ سخيضةٌ يرويها اليهود نفاها الله تعالى، فلا يستطيع السَّاحِرُ أَنْ يَضُرَّ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فالسَّاحِرُ لا يستطيع أن ينفذ بسحره إلى إنسانٍ إلا إذا كان غافلاً عن الله سبحانه وتعالى.

العلاقات الإنسانية المتينة يأتي السَّاحِرُ فَيَقْصِمُ بينها ويحلُّها ويجعلها واهية :

إذا قال الإنسان:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

بطل السِّحْرِ، ومعنى النفاثات في العُقَدِ، هذه العُقَدُ المتينة، العلاقة الزوجية عُقْدَةٌ، وعلاقة الأخوة عُقْدَةٌ، وعلاقة الشريكين عُقْدَةٌ، وعلاقة الأبوة عُقْدَةٌ، وعلاقة الجوار عُقْدَةٌ، والسيدة عائشة رضي الله عنها سألت النبي عليه الصلاة والسلام مرَّةً: كيف حُبُّكَ لي؟ قال: كعُقْدَةِ الحبل، فكانت تقول له من حينٍ لآخر: كيف العُقْدَةُ؟؟ فيقول لها: على حالها، فرَبُّنا عز وجل قال:

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾

فهذه العلاقات الإنسانية المتينة يأتي الساحر فيفصم بينها، ويحلها، ويجعلها واهية، فالخلاف الزوجي يقع بسبب زوجين غافلين عن الله عز وجل، ويأتي السحر فيقطع هذه الصلة.

الحسد نوعان :

الآية الأخيرة، هي قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

١ - حسد مذموم :

قال العلماء: الحسدُ مذمومٌ ومحمود! هو مذمومٌ إذا تمنيت زوال النعمة عن أخيك المسلم، وأن تتحوَّل إليك، هذا هو الحسد:

قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَاءَتِ الْأَدَبِ؟

أَسَاءَتِ عَلَى اللَّهِ فِي فِعْلِهِ إِذْ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ

إصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

هذا هو الحسدُ المذموم، لماذا؟ لأنه تنفية للحق سبحانه وتعالى على إنعام نعمة ظننت صاحبها لا يستحقها، هذا شريكٌ بالله، وكفرٌ به.

٢ - حسد محمود :

وأما المحمود فما رواه عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَرَجُلٌ آعَظَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ

آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[متفق عليه عن عبدُ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُمَا]

إذا حسدتهما فهذا هو الحسد المحمود، ولكن العلماء سموه غبطةً، وسماهُ اللهُ تعالى منافسةً، فقال تعالى:

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

[سورة المطففين: ٢٦]

وقال تعالى:

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾

[سورة الصافات: ٦١]

فَسَمَاهُ اللَّهُ مُنَافِسَةً، وَسَمَاهُ النَّبِيَّ غِبْطَةً، وَفِي الْأَثَرِ عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ: الْمُؤْمِنُ يَغْبِطُ وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

((العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر))

[أبو نعيم في الحلية عن جابر]

فَلَنْ تَتَأَثَّرَ بِالسِّحْرِ وَلَا بِالْحَسَدِ - مَرَّةً ثَانِيَةً - إِلَّا إِذَا كُنْتَ غَافِلًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِذَا تَلَوْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

فلن يصل إليك شيرير، ولا شيطان يستطيع أن يدخل في صدرك، ولا ساجر أن يؤثر فيك، ولا حاسد يمكنه أن يحسدك.

حال الحاسد :

ثم إنَّ الحاسدَ أَبْغَضَ النَّعْمَةَ عَلَى غَيْرِهِ، وَفِي هَذَا شَكٌّ مِنْهُ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْحَاسِدُ سَاخِطٌ لِقِسْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَضَادٌّ فِعْلَ اللَّهِ، وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ، وَخَذَلَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَحَسَدَهُمْ، وَذَمَّهُمْ بَدَلُ أَنْ يُدْعَمَهُمْ، وَالْحَاسِدُ أَعَانَ الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيهِ، وَلَا يَنَالُ فِي الْمَجْلِسِ إِلَّا النَّدَامَةَ، وَلَا يَنَالُ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اللَّعْنََةَ، وَلَا يَنَالُ فِي الْخُلُوعِ إِلَّا الْجَرَاعَ وَالْعَمَّ، وَلَا يَنَالُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْحُزْنَ وَالْإِحْتِرَاقَ، وَلَا يَنَالُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا وَمَقْتًا، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ثَلَاثَةٌ لَا يُسْتَجَابُ دُعَاؤُهُمْ: أَكْلُ الْحَرَامِ، وَمُكْثَرُ الْغَيْبَةِ، وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ أَوْ حَسَدٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ هُوَ الْحَسَدُ قَالَ تَعَالَى:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

[سورة الأعراف: ١٢]

وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ أَنَّ قَابِيلَ حَسَدَ هَابِيلَ، فَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ الْحَسَدِ، وَنَسَأَلَهُ الْمُنَافِسَةَ وَالْغِبْطَةَ فِي الطَّاعَةِ، وَالِاسْتِقَامَةَ وَحِفْظَ كِتَابِ اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، فَهَذِهِ السُّورَةُ إِقْرَأْهَا قَبْلَ أَنْ تَنَامَ، وَلَنْ تَرَى مِنْهَا مُخِيفًا:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾